إصالة زيارة عاشوراء

د. حسن الأنصاري

ترجمة: هاشم مرتضى

توجد بحوث كثيرة بين علماء الشيعة بشأن سند زيارة عاشوراء ومتنها وإصالتهما.

ومضافاً الى المقام المعنوي لهذه الزيارة، وتجارب المؤمنين الشخصية معها الواردة في الكتب والمتداولة في التراث الشيعي، فإنّ لها من وجهة نظر تاريخية أهمية كبرى.

إنّني في هذا البحث لا أتطرّق الى مباحث السند حيث توجد دراسات متنوعة لحد الآن، ومن أفضلها ما ذكره الفقيه الرجالي آية الله السيد موسى الشبيري الزنجاني في صحة سند هذه الزيارة.

إنّ هذه الزيارة رويت في التراث الشيعي عن الامام الباقر عليه السلام، وإنّي أحاول - في بحثي هذا - أن أُثبت إمكان صحة انتساب متن هذه الزيارة من وجهة نظر النقد الداخلي والتاريخي الى زمن نهاية الحكم الاموي، وهذا ما أُوجزه فيما يلي:

لا يوجد في متن هذه الرسالة أيّ شيء لا يتلاءم مع ظرف صدورها. إنّ ما ورد فيها بشأن الائمة والعترة ينطبق تماماً مع العقائد الموجودة آنذاك في فترة نهاية العصر الاموي، ولا يوجد فيها ما ظهر وتكامل في الأعصار التالية. فنوع الامور

المذكورة في هذا المتن تنطبق تماماً مع حال الشيعة في تلك الفترة، ويتلاءم مع عواطفهم وأحاسيسهم فيما يتعلّق بمصائب أهل البيت عليهم السلام وأعدائهم من الامويين، فهي تلخّص لنا المشهد العام الذي نعهده لتلك الفترة، من خلال المصادر التاريخية المعتمدة.

انّ مشهد (الولاء) و(البراء) الذي نراه في متن الزيارة، يتلاءم أيضاً مع الفضاء العام السائد في النصف الأوّل من القرن الثاني، وهذا لا يخفى على من عرف تاريخ الفرق والملل في تلك الحقبة.

ورد التأكيد في جميع الزيارة على البراءة من الامويين، الأمر الذي انتشر تماماً وبوضوح عند الشيعة في تلك الحقبة، وفي الواقع فإنّ التشيع كان يشكّل جمهوراً كبيراً من مخالفي الحكم الاموي وبنفس الوقت الالتزام وإظهار الوفاء لآل بيت النبي صلى الله عليه وآله.

ومع قطع النظر عن بعض الاتجاهات الشيعية الخاصة آنذاك، فإنّ عموم الشيعة تمحوروا حول محور رفض خلافة الامويين والاجماع على ذلك، لذا نرى التأكيد على البراءة من الامويين في متن الزيارة، الأمر الذي يدلّ على أصالة هذه الزيارة، إذ انّ المتون المروية بعد هذه الفترة ؛ لتأثرها بفضاء صدورها وبذهنية الناس، تفتقد هكذا تأكيد للبراءة من الامويين الذين انقضى عهدهم؛ بل تورد فيها عبائر عامة بإمكانها الانطباق على فترة الحكم العباسي أيضاً.

ذكرت الزيارة أسماء عدد من أعداء أهل البيت عليهم السلام الأمر الذي يعني حيويّة هذه الأسماء في خلد المخاطبين عند صدور الزيارة، فالتأكيد على آل زياد أو شمر وعمر بن سعد فيما صدر في أُخريات عهد بني امية ؛ طبيعي للغاية ويرمز الى شعور عموم الشيعة أمام الظلم والاضطهاد الحاصل من قبل الامويين وعمالهم فرداً فرداً تجاه آل البيت عليهم السلام، فلو لم تتعلق هذه الزيارة بتلك الحقبة؛ بل حاكتها الأيادي فيما بعد، لكانت تتأثّر بشكل طبيعي بتأثيرات ظرف صدورها الزمني، ولما

ورد فيها هذا التركيز على آل امية ومواليهم. فما ورد من لعن آل امية وسائر مواليهم أبد الآبدين خير دليل على تواجد هذه الاسر في الحكم وتحت ظل بني امية عند صدور متن الزيارة، حيث كان أشياعهم وأتباعهم وأولياؤهم مستمرين في الظلم والجور على آل البيت عليهم السلام .

فالفضاء العام الحاكم على الزيارة ليس فضاء زيارة صدرت بعد زمن بني أُمية حيث لا توجد أيّ خلفية منطقية لإبراز الاحساس السلبي تجاههم .

هذه الزيارة تتكلّم عن السلم والحرب مع أهل البيت وأعدائهم، كما تعّين مصاديق الاعداء باللعن على آل زياد وآل مروان وبني أُمية وأشياعهم وأتباعهم، فذكر آل مروان وبني أُمية يدلّ بوضوح على صدور هذا الكلام حين تسنّم هذه الأُسر للحكم، كما تهدف الزيارة الى ابراز أنّ قتلة الحسين بن علي وأصحابه ولم يكونوا حين صدورها، وإن كانوا موجودين بوجود أُسَرهم وآلهم وأنّهم حتى لو تنّصلوا عمّا حدث في زمن يزيد، لكنّهم يسيرون على نفس الخطى، وعليه يلزم البراءة أيضاً منهم .

هذا الأمر يكشف بوضوح المناخ السياسي الحاكم قبيل انقلاب العباسيين على الحكم الاموي، كذلك يعكس حال الشيعة في الكوفة أوائل القرن الثاني، ففي مقطع من هذه الزيارة تتّم الاشارة الى ظلم هؤلاء لمحبي آل البيت عليهم السلام الأمر الذي يعكس العداء الاموي ضد العلويين والشيعة في أواخر عهدهم، وفي الواقع فإنّ لهذه الزيارة مع ما تمتلكه من مقاطع إعلامية ثورية عاطفية الأثر الكبير في تهييج العواطف ضد الامويين، وعليه فهذه الزيارة تمتلك بعداً ثورياً يمكن تفسيرها طبقاً للفضاء الحاكم آنذاك من تقابل علوي شيعي ضد الامويين .

الأمر الآخر الموجود في الزيارة، مسألة الانتظار لقيام شخص من آل بيت محمد صلى الله عليه وآله طلباً للثأر وقتل الأعداء الذين منعوا آل البيت من الوصول الى مراتبهم،

وهذا الأمر ورد في قوله: (أن يرزقني طلب ثارك مع إمام منصور من أهل بيت محمد ...)، فالتعبير عن ((منصور)) واستعماله في الزيارة يُعد من الاسماء التي راج استعمالها عند الشيعة أيّام كفاحهم في أواخر الحكم الاموي، حيث ورد ذلك في مصادر مستقلّة. وأنا أعتقد شخصياً بأنّ هذه الزيارة كانت بمثابة بيان رسمي آنذاك للنهضة الشيعية ضد الامويين .

المورد الآخر الدال على مسألة الانتقام بحضور الامام قوله: (وأن يرزقني طلب ثاري مع إمام هدى ظاهر ناطق بالحق منكم)، فما ورد في الزيارة من مواصفات الإمام كان هو الذي يلتمسه الشيعة في الإمام الحق آنذاك .

والخلاصة أنني أعتقد - مع قطع النظر عن البحث السندي - امكان اثبات أصالة هذه الزيارة وانتسابها الى فترة أواخر الحكم الاموي بالاعتماد على منهج النقد التاريخي والداخلي للمتن أو السيميائية التاريخية، وهذه الطريقة وإن لم تثبت لنا الانتساب السندي الى الامام الباقر عليه السلام، حيث هو بحاجة الى بحث سندي داخلي كما صنعه علماء الشيعة، ولكن مع هذا تبقى هذه الزيارة ـ من وجهة نظر تاريخية ـ من المتون الدعوية السرّيّة التي كانت متداولة آنذاك بين الشيعة وتناقلت وقرئت كمتن شيعي، ثم دوّنت في المدونات الشيعية فيما بعد وحفظت هناك، ومن الواضح أنّ هذه المتون المتأخّرة قد استندت إلى متون متقدمة عتيقة تداولتها الشيعة لأكثر من مائتي سنة، الى أن انتهت بالتدوين والكتابة ضمن المصنفات الروائية.